

رؤية معاصرة للشعر العربي

للأستاذ

محمد حمزة

قصائده كلها عبارة عن قصيدة واحدة منسوخة على ورق كربون ! وإن الشاعر لم يكن يبذل أي جهد ليفهم عصره أو ليغوص في أعماق عصره . أو ليفهم قضية الإنسان .

العملية كلها بالنسبة للشعر العربي خلال ألف سنة لآخرية كانت عبارة عن نوع من اكتشاف ما هو مكتشف . كانت عبارة عن كيمياء لغوية تعاد . وهو ينكر الآن أن الشعر ليس هو اللغة ، ويرى أن القاموس لا يستطيع أن ينظم قصيدة ، وإنما الإنسان هو الذي ينظم هذه القصيدة ، وهو لذلك في نظره أن القاموس . سقط بكل محدودياته القديمة ، سقط كمجموعة من الألفاظ والتراكيب ، والقوانين الصارمة التي لا تحتمل المخالفة ، وهو شخصيا يخالف ، لأنه يجب أن يكون مع الحياة لا مع النصوص الميتة .

ومع احترامي للشاعر وتقديري لفنه فلي على ما يقول ردود :

أجرى القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية في لندن مقابلة مع الشاعر نزار قباني في برنامج "ساعة الأحد" وكان مما قاله نزار :

إن شعرنا القديم الذي استمر من العصر الجاهلي إلى مطلع القرن العشرين . كان شعرا صعبا لأنه كان يعتمد على التراكيب اللغوية ، وعلى النقش والزخرفة ، فانا اردت من الشعر ان يخرج من جدران الاكاديميات ، وينقلك في الحداثق العامة ، ويعايش الناس ويتكلم معهم .

ويعتقد الشاعر نزار انه توصل إلى معادلة شعرية ، يكون فيها الناس جزءا لا يتجزأ من الشعر . وشعر منذ البداية إن هناك هوة كبيرة بين الشاعر وبين الجمهور كان هناك نوع من الجدار اللغوي المنيع الذي يحول دون ان يتذوق الناس الشعر . والشاعر نزار لا يؤمن بالاشياء الثابتة ، وهو يتطور مع الحياة ، ويغير جلده في كل لحظة ويرى ان شعرنا العربي خلال عصور الانحطاط ، كانت

1 - اعتقد ان عترة العبي سبق نزاراً في كثير مما يراه حين قال :
”هل غادر الشعراء من متردم“ واعترف بانه لم يترك الشعراء شيئاً من الشعر لم يصلحوه ، ويهذبوه ، ولم يغادروا معنى لم يسبقوا اليه حتى ينتهياً لمثله او لغيره ان يأتي بمثله .

2 - إن الشعر العربي الذي استمر من العصر الجاهلي حتى مطلع القرن العشرين لم يكن صعباً كله . إن شعراً كشعر عترة وطرفة وعمر ابن ابي ربيعة والبحري وابي نواس . وغيرهم كثيرون في عصور الشعر العربي الزاهية لكفيل بدحض هذا الزعم المشبوه ، ودفع هذا الرأي المريب . إن اغلب شعرا ينساب رقراقا سلسا ، جميل الرونق ، صافي الاديم ، موحى الفكرة ، في اي غرض من اغراضه . واعتقد ان كثيرا ممن يدعون المعاصرة ، والذين كرسوا حياتهم للمرأة ، لم يبلغوا معشار ما بلغه قداماء شعرائنا في وصفها ، ومن هؤلاء الذين يدعون التحديث والتعصير استطاع ان يقول كما قال دوقة المنبجي :

لهني على دعد وما خلقت الا لجبر نلهني في دعد
بيضاء قد لبس الاديم بها الحسن فهو لجلدها جلد
ويزين فوديتها اذا حسرت ضافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجما حسنا والضحك يظهر حسنه الضد
ما عابها طول ولا قصر في خلقها فقوامها قصد

ومن الذي قال مثلما قاله النابغة الذبياني :

صفراء كالسبراء اكمل خلقها

كالغصن في غلوائه المتأود

مخطوطة المتن غير مفاضة

ريا الروادف بضمة المتجرد

زعم الهمام بان فاها بارد
عذب مقبله شهبي المورد
زعم الهمام ولم اذقه انه
عذب اذا ما ذقته قلت ازدد
زعم الهمام ولم اذقه انه
يشفي بريا ريقها العطش الصدي

ومن لي بمن قال مثل ما قاله حكيم المعرة :

ما اتخير صوم يذوب الصائمون له
ولا صلاة ولا صوف على جسد
وانما هو ترك الشر مطرحا
ونفضك الصدر من غل وهن حسد

إلى غير ذلك مما لذ وطاب ، ذكرى وعاطفة وعلماء وحكمة .

3 - إن اللغة العربية عالم تمتد ظلاله بلا آفاق ولا حدود تلقائيا ، وكل من حكم عليها بالصعوبة أو حتى بالسهولة فقد البس نفسه الحذاء الصيني ، وحكم عليها بالمحدودية ، ولم يستشق ازهار العربية ، ولم يستمتع برؤى خمائلها ، ولم يتقلب في بساطتها ورياضها . وحرمة النعمة الكبرى ، ولم يحصلوا اللذة الحقيقية ، العميقة الكاملة ، الغنية المشحونة . فشعر العرب لم يكن صعباً كله ، ولو فرضنا جدلاً أن ذلك واقع فعلاً ، فانه لا يجوز التعميم او القطع والحسم مهما بلغ المرء من الاستقصاء ، و «الشاعرية» . ذلك ان الادب . والشعر فرع عنه - شيء ذاتي تختلف فيه اذواق اناس ، وتتضارب في النظر اليه مشاربهم .

إن لغة الشعر الجاهلي ، وإن بدت لنا لغة «كلاسيكية» ، كانت في زمانها هي ايضا تنبع نبوعاً تام الصديق من بيتها ومجتمعها ، وتقرب اقرباً وثيقاً من لغة الحياة

اليومية التي كان يتحدث بها الناس العاديون في ذلك الزمان . وهي لغة كانت منتخبة - شأن لغة الشعر الناصح كله - جودها افراد أوتوا نصيبا زائدا من الفصاحة والحس اللغوي ، والثروة اللفظية ، والمقدرة التعبيرية عما يفكرون ويشعرون . لكن هذا الانتخاب والتجويد لم يجعلها من معدن مختلف عن لغة الحياة اليومية ، كما تختلف لغة شعرنا الآن عن لغة حديثنا اليومي . وهذه حقيقة يصعب علينا الآن أن نصدقها ، اذ قبلوا لنا تلك اللغة الشعرية غريبة صعبة مليئة بالمفردات غير الشائعة ، ويبدو لنا التزامها الدقيق لقواعد النحو والصرف شيئا غير طبيعي ، فننسى ان هذه القواعد كانت في يوم من الايام سننا طبيعية يجري بها اللسان العربي ، وإن اهلها الآن وأهدرها ، وأن تلك الالفاظ كانت شائعة مألوفة تستعمل في واقع الحياة لا في بطون الكتب . وكل براعة الشعر هي في اختيارها وضم بعضها إلى بعض في تراكيب تعطيها اتم شحناتها الفكرية والعاطفية ، وتنغمها فيما بينها في موسيقية تعصر كل امكانياتها الابداعية والجرسية (1) والكلمة العربية تلتزم التقيد بمقتضيات طبيعتها الخاصة ، وتستمد سلامتها من صيغة مثلى ليس لتداولها بين الناس أية صبغة شرعية يضيفها عليها . مثل الكلمة العربية كمثال الحياة التي هي امتداد لها ، فكما ان انتشار المرض وانتقاله عبر الاجيال ، لا يغير من طبيعته كحالة ميل ، فكذلك الكلمة الموضوعية وضعا شاذا في اللغة العربية ، لا يقوى الزمان على توكيد سلامتها . حتى لقد ترجع صورة العربي إلى المثل الاعلى . إلى نزوع كلماته إلى تخطي الواقع المتعارف عليه نحو مثل تستكمل به شروط سلامتها . فهل من تفسير لظهور مئة واربعة وعشرين ألفاً من الانبياء بجزيرة العرب غير تفسير الاتفاق في الصبوة نحو المثل الاعلى بين الكلمة العربية وبين صاحبها ؟ وذلك ما يجعل الاختلاف في التطور بين لغتنا وبين لغات غيرنا من الاقوام . فبينما كانت الكلمة

عند غيرنا تتطور من جيل إلى جيل حتى تصبح في نهاية الامر مختلفة المعالم عن نشأتها ، كانت الكلمة العربية يبقى على ما هي عليه ، لا يؤثر فيها الزمان ، وكل ما كان تحدث ، هو ان أجدادنا إذا ما انتقلوا من مرحلة تاريخية إلى أخرى كانوا يسقطون من التداول الكلمات المعبرة عن الاوضاع المهمة ، وينشئون في حدود نظام اللغة ما يعنى منها بالتعبير عن حاجات المرحلة التاريخية المعاصرة . ولو قارنا بين قصيدة من الادب الجاهلي كقصيدة عبد المطلب جد الرسول مثلا ، وبين قصيدة أخرى من الادب الفرنسي في عهد شارلمان المتأخر خمسمائة سنة عن عبد المطلب ، لوجدنا القصيدة الاولى لا تختلف من حيث السهولة على أفهام الاجيال منذ وضعت حتى الآن ، ولوجدنا القصيدة الثانية تعز على افهام الفرنسيين اليوم ، الا الذين اختصوا منهم باللغة الرومانية (2) والسبب في ذلك هو ان اللغة العربية أصيلة في نفسها ، وتوصل حتى الاجنبي من الكلمات التي تدخلها وتلوذ باحضانها .

4 - إن الشعر العربي لم يكن كله نقوشا او زخارف ، ولو سلمنا بشيء من ذلك ، فلا يعدو ان يكون لمعة من اللمع ، شأن كل شيء في هذه الدنيا ، فقد يظهر في فترة معينة ، وعند شعراء بأعيانهم . ان كل شاة تناط من رجليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . إن كل ما نقوله الآن عن القدماء سلبا او ايجابا ، سوف يكون لنا نصيب مثله ، ولم لا نذكر موتانا بخير ؟ ونعوذ بالله من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، وشماته الاعداء :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناس بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلي الشامتون كما لقينا
فالشعر العربي ، ولو من باب الانسانية أو التجرد لا يضيره او يحط من قدره ما فعله هذا أو تخط عنه ذلك .

5 - كَوْن الشعر العربي عبارة عن قصيدة واحدة منسوخة على ورق كربون في أيام الانحطاط، شيء طبيعي ، والعبرة في تدارك النقائص و الاخطاء ، لا في وصفها او التشهير بمجترحيها والمسؤول عن الانحطاط هنا ليس هو الشعر ! إنما المسؤولون ذؤوه . إننا لا نلوم النهر إذا جف مأؤه ، والجفاف ينسب إلى النبع والروافد ، والشعر مرآة عصره كما قالوا ، ونحن لا نلزم الابن ، أن يلبس حذاء أبيه ولا نكلف شخصا من الاشخاص ان يكون جميلا او ان يزيد في خلقه ليظهر وسيما جذابا على وجه المرأة ، والمرأة المنكسرة او المخدوشة ، تعكس الاشياء كذلك ، مشوهة ناقصة الخلقة ، وعصر الانحطاط والتقهقر لا يمكن للشعر فيه إلا ان يكون اشد انحطاطاً ، وأعظم تقهقراً. ذلك أن الشعر شعور وانحساس ، والشعب المتخلف شعوره واحساسه مائتان. ولو طلبنا من شعر ما في عصر انحطاط ما ، وفي شعب ما أن يكون راقياً ، لكننا ممن يكلفون الاشياء ضد طباعها. فتلك هي سنة الكون في كل شيء ، زمانا ومكانا .

6 - كَوْن شعر يقال في خلال الف سنة عبارة عن نوع من اكتشاف ماهو مكتشف ، كلام تنقطر المغالاة من جنباته ، فقد يكون الشبح حقيراً لكن له شأن كبير ، وقد تكون الصورة ضئيلة ، لكن لها معان جلية . ومما لا مشاحة فيه اننا نجد عند هذا الشاعر مالا نجده عند ذاك ، لاختلاف الطبائع والامزجة . إن الامر كله في التفاوت الذي هو مقياس التفاضل . ولكل تفاوت أصل ومرجع ، ولا يمكن للاشياء ان تكون صوراً مطابقة لبعضها البعض . كما لا يمكن للواقعة التاريخية ان تتكرر مهما يظهر من شبه بينها .

ويعلم الله ان لو بعث عنترة من مرقده ورأى وسمع كثيراً مما لم يغادره الشعراء لا نبهر واطل فاتحافاه لما قد يسمعه او يراه مما لم يكن له بحسبان ولم يدر على خلد لإنسان .

7 - حقا إن القاموس لا يستطيع ان ينظم قصيدة ، إن القاموس هري من الالهراء فيه تخزين حضارات الامم ، والقصيدة من صنع الانسان ، ومن حواصل العقول البشرية ، واللغة وعاء للقصيدة ، وهي إهابها . وسجل لكلماتها ومعاني هذه الكلمات . والكلمات هذه وغيرها صامتة بالفعل ، لكنها صالحة بالقوة لان تصير الفاظا مسموعة ، او خطوطا مكتوبة مقروءة في سياق كلام . ولا يصدر ذلك الا من قلب الشاعر أو لسانه وكيانه عموماً ، والقلب معدن ، والعقل جوهر ، واللسان مستنيط ، والقلم صائغ ، والخط صيغة . ولا يتصور ان تعرف للفظ معنى موضوعاً من غير ان تعرف معناه ، ولا ان تتوخى في الالفاظ من حيث هي ألفاظ ترتباً منظماً ، وانما تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هنالك . فاذا اتم لك ذلك اتبعتها الالفاظ وقفوت بها أثرها . وإنك اذا فرغت ممن ترتب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الالفاظ ، بل تجدها ترتب لك بحكم انها خلد للمعاني وتابعة لها . وتقالييد السماع في الكلام بحكم قدمها وحدائث تقاليد الكتابة ، جعلت الكلام المسموع يبدو أكثر أهمية من الكلام المنظور . ذلك لانه أدخل في الحياة من الكتابة وأوغل في سلوك الفرد والمجتمع حتى لقد زعم بعض العلماء ان التفكير لا يتم بدون الكلمات . والحروف وحدات من نظام ، وهذه الوحدات أقسام ذهنية لا اعمال لفظية ،

على نحو ما تكون الاصوات . والفرق واضح بين العمل الحركي الذي للصوت وبين الادراك الذهني الذي للحرف ، اي بين ما هو مادي محسوس ، وبين ما هو معنوي مفهوم . فالكلام هو ذلك الذي يقوم في النفس فينتخيل كلاما . وربما كان الاخطل يقصد هذا حين قال :

لا يعجبنيك من خطيب خطبة

حتى يكون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لي الفؤاد وانما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والمعجم معين صامت هاديء ساكن ، مستعمل بالقوة لا بالفعل ، وهل يدور في وهم او يجري على عقل ان يعيش إنسان مهما تعبر وتعتسر ، بعيدا عن اللغات . هذا والله إحالة . ان اللغة للبشر كالهواء والماء والغذاء . فلماذا التنكر لهذه النعمة الكبرى !

8 - سقوط القاموس بكل محدودياته القديمة كمجموعة من الالفاظ والتراكيب والقوانين الصارمة لا تحتل المخالفة وجوب كون الشاعر مع الحياة لامع النصوص الميتة ، إسقاط للحياة نفسها ، ذلك لان القاموس هو مجلى الامم ، ومعرض لحضارتها ومجدها . وقد كان انا تول فرانس يقرأ قواميس اللغة الفرنسية قراءة دائبة كما يقرأ اي كتاب . وعبقريه فكتور هيجو

ترجع في كثير من مناحيها الى معرفته الواسعة بمفردات اللغة الفرنسية ، والمتنبي علم العربية الاشهر كان اوسع اهل زمانه معرفة باللغة وآدابها ، وبالثقافة الاجنبية التي نقلت إليها . روي عن ابي علي الفارسي علامة اللغة في زمانه انه سأله : كم لنا من الجموع على وزن فعلي ، فقال المتنبي على الإثر : حجلي وظري . قال أبو علي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال علي اجد لهذا الجمع ثالثا فلم اجد . إن العبقريه الشعرية تبرز في مجال الافكار والموضوعات ، وبذلك يحي القاموس ، ويستنشق نسمات الحياة ، وتدب الحركة في أوصاله . وإن ما كان حيا بالامس يصير إلى موت غدا . وما كان حيا في يومه ينطبق عليه ما ينطبق على سابقه .

تلك هي حتمية تاريخية ، او جبرية تقودها ذراع القدر في ظلمات الغيب . الذي لا تصل اليه عقول البشر مهما أوتوا من قوة أو مبلغ من علم . إن إحياء الرمة يكون ببث الحياة فيها . والله در ابي نواس اذ يقول :

إن مع اليوم - فاعلمن - غدا

فانظر بماذا ينقضي مجيء غده

ما ارتد طرف امريء بلذته

الا وشيء يموت في جسده

محمد حمزة - الرباط